

صورة الأنديجان في الرحلات الفرنسية أثناء القرن التاسع عشر الميلادي

- د. سميرة أنساع

جامعة الشلف

تقديم:

من خلال تركيزها على صورة الأنديجان في عدد محدود من الرحلات الفرنسية نحو الجزائر، تقدّم هذه المداخلة المتواضعة قراءة لمختلف الوجوه والأشكال التي كشفت عنها هذه الرحلات حول الإنسان الجزائري، وهي التي قد لا تتباين بشدة مع ما جاء في رحلات فرنسية أخرى تعجز المناسبة عن تحليلها¹، إنها الأفكار والانطباعات الشائعة والمشاركة بين الفرنسيين، حيال الأجنبي والآخر، وهي المترسبة عبر قرون طويلة فيما يعرف بالمخيال الفرنسي الجمعي، والذي ابتدعته مختلف الكتابات المترتبة حول الرحلة إلى بلدان الشرق، وبلدان إفريقيا، وآسيا منذ القرون الوسطى، وعهد الحملات الصليبية، وقد خلفت كتب الرحلات الأوروبية عموماً، والفرنسية خصوصاً معرفة متراكمة حول المناطق المكتشفة آنذاك، تغذت من وجود متزايد للذات الأوروبية في فضاءات ثقافية وجغرافية غريبة، وأفرزت مزيجاً من التصورات العجائبية والعنصرية مرجعيتها سمو الجنس الأبيض وتفوقه، وأفرزت في النهاية تنافراً بين الغرب والشرق، وبين المسيحية والإسلام، ولم تسلم القرون المتأخرة من الصراع بين العالمين.²

وهكذا استمرت الرحلة الفرنسية نحو الاتجاهات المذكورة أثناء القرن السابع عشر، وكان الفضل لكتاب المدرسة الكلاسيكية في تطويرها؛ لأغراض عملية، وحاجات جماعية جسدتها على الخصوص: "الرحلات التبشيرية والإرساليات الدينية.. كما كانت هناك على المستوى الدولي متطلبات الحياة السياسية والحربية في أوروبا.. وكانت هناك أيضاً متطلبات التجارة في فترة صعود المدّ الرأسمالي والكولونيالي الغربي".³

أما في القرن الثامن عشر، فقد عرفت الرحلة الفرنسية تحولا جذرياً؛ مع تنامي التيار الرومانطقي، حيث أصبحت تابعة لنوازع فردية لدى كتابها، وذات مشاريع تخيلية، ارتبطت بـ "الهجرة"، والتوجه إلى حياة الماضي الوديع المتمثلة في حضارة الشرق، والهروب من المدنية الأوروبية بما فيها من صراع⁴، وهذا إضافة إلى كونها غدت من الضرورات السياسية، والاجتماعية لدى مثقفي البلاد المختصين في الأنثروبولوجيا، والإثنوغرافيا، والعلوم الطبيعية، لكنها بلورت نظريات دينية، وعرقية متعصبة، مثلما كشفت عن سياسات استعمارية خطيرة.⁵

وفي بداية القرن التاسع عشر الميلادي، كانت بعض دول أوروبا ذات الأهداف الاستعمارية، قد شرعت في احتلال بلدان من الوطن الإسلامي، وممارسة مختلف أشكال القهر المادي والفكري، وقد مهدّت لهذا الاحتلال، وعاصرته رحلات كثيرة لا تحصى، لنخبة من المثقفين الغربيين، الذين عمدوا إلى اكتشاف عادات الشعوب، وطرق تفكيرهم، والعودة إلى ماضيهم، وسعوا إلى إحياء القوميات التاريخية القديمة في البلدان الإسلامية،

لهدف زعزعة النفوس، وبث الشك فيها، والتفريق بينها، وبسط نفوذهم الفكري، والسياسي، والعسكري على تلك البلدان.⁶

ومن بين هؤلاء نجد نسبة أكبر مثلها الفرنسيون برحلاتهم المترددة إلى شمال إفريقيا، وإلى الجزائر تحديداً، وتهمنا في هذا الموضوع أربعة كتب قدمت خلاصة تجارب مؤلفيها، جراء سفرهم إلى بلادنا وإقامتهم بها مدداً متباعدة، وهي: تقرير⁷ الدكتور وارنيي المعنون بـ: "الجزائر أمام الإمبراطور"⁸ الذي ألفه صاحبه تكملة لتقريره الأول: "الجزائر أمام مجلس الشيوخ"، والثاني: "الجزائر أمام الرأي العام"، أما الرحلة الثانية، فهي ليول بورد موسومة بـ "رحلة عبر الجزائر"⁹، والثالثة هي للكاتبة لويس رجييس المسماة: "قسنطينة: رحلات وإقامات"¹⁰، والرحلة الرابعة لأوغست باسيت المعنونة بـ: "رحلة عبر جزائر اليوم".¹¹

1. استيراثية السيطرة ومحو الهوية الجزائرية حسب وارنيي:

يتضمن كتاب وارنيي الجزائر أمام الإمبراطور، مقدمة وثلاثة أقسام، حوى الأول منها عرضاً تفصيلياً حول عادات، وطبائع السكان الأهالي بالجزائر، وقد عنون القسم بـ: "الأنديجان" وهذا القسم هو الذي يهمننا بالدرجة الأولى؛ لأنه يلخص لنا صورة الأنديجان كما انطبعت في فكر وارنيي ومن ليس عبايته، واقتنع بأهمية استعمار فرنسا للجزائر، وبفكرة الإدماج "Assimilation"، وجاء القسم الثاني للتعريف بمختلف القضايا المطروحة حول المعمرين وسياسة التعمير في الجزائر، وأنهى وارنيي كتابه بقسم ثالث جاء حول الجيش الفرنسي، وإنجازاته المشرفة - حسب الكاتب - في البلاد، ومختلف عملياته العسكرية.

يقدم وارنيي في قسم الأنديجانا لقائه صورة ونقيضتها، خصت الأولى البربر، بينما وضحت الثانية الجانب الآخر وهم العرب، واجتهد وارنيي كثيراً في مسألة الكشف عن الفروق الجوهرية بين كل من: البربر، والعرب، والبربر المستعربين، وقد رأى أن الفنة الثالثة من شأنها أن تغير حالة غلبة البربر على العرب أو العكس عند الإجابة عن السؤال المطروح وهو: هل البربر المستعربون هم بربر أكثر منهم عرب، أم إنهم تخلوا عن بربريتهم ليطغى عليهم الطابع العربي؟ وطبعاً لم يكن هذا البحث والسؤال موضوعياً، ولا بريئاً؛ بل هو متوافق مع إيديولوجيته وإيديولوجية من شاركه هذه الأفكار من أشهر أعلام العلم، والثقافة في بلاده، كالمؤرخ هنري مارتن¹²، والكولونيل (العقيد) كاريت¹³، وبربرغر¹⁴، وغيرهم، هؤلاء عملوا وفق ما يعرف بسياسة "فرق تسد" على كسب الطرف الأكثر عدداً¹⁵، وضمان إحكام السيطرة على البلاد الجزائرية، وإنجاح مساعي التعمير، ودمج الجزائر مع فرنسا، وتوسيع المملكة.¹⁶

تأتي الصورة الإيجابية، الحاملة للكثير من المزايا والقيم المشرفة منسوبة لبربر الجزائر، وهم وإن كانوا مختلفي اللهجات والأماكن، فإنهم يتوحدون بكونهم السكان الأصليين لإفريقيا قبل الفتح الإسلامي، وهو لذلك يعدد أسماء البربر المتوزعين على بلاد المغرب من حدود تونس إلى حدود المغرب الأقصى، فيذكر من يسمون بالقبائل، وهم المتواجدون بمحاذاة سواحل البحر الأبيض المتوسط، والذين سموا بالشاوية الساكنين المنطقة الجنوبية لعمالة قسنطينة، وكذلك نجد بربر الجبال القريبة من عمالتي الجزائر ووهران الذين يسمونهم الجبابلية (Montagnards) ورأى وارنيي أن الاسم مأخوذ من الكلمة الرومانية (Jubalènes)، وفي الصحراء الشرقية وبوادي ريغ، وبلاد ورقلة نجد الرواغة وهو الاسم المرادف لكلمة السود (Negrites) اليونانية والرومانية،

أما الصحراء الوسطى فنجد من يسمون ببني ميزاب نسبة للمكان الذي يسكنونه، بينما يسكن في الصحراء الغربية من يدعون بالبرابر.¹⁷

ويدعم الدكتور وارنبي هذه الحقيقة الجغرافية، بصورة إثنوغرافية شاملة للبربر، مفادها أن البربر أقرب إلى الأوروبيين من العرب؛ كونهم أصحاب فلاحية وحضارة سادت عصورا مديدة، وهم: "مسيحيون قدماء، مسلمون بأقل من المستطاع، منهم من هو منشق عن العقيدة، ومنهم من يشارك العمال الأوروبيين في مزارعنا أكل حساء الشمنزير(شحم الخنزير)."¹⁸

وبصوّر وارنبي البربر على أنهم معمرين قدماء لأرض الرومان، ومن أنهم حفظوا طرق المعيشة والعمل في الفلاحة والصناعة الرومانية، ويفصل في ذلك معددا ما أخذوه عنهم: "أولا النظام البلدي والملكية الفردية، ثم حرفة استخراج المعادن من الأرض وتصنيعها، وأغلب الصناعات والحرف المرتبطة باستغلال الخشب وتصنيعه، وكذلك حب الملاحة والترحال، وبعض المهارات التجارية، وعدد من المناهج والحرف القروية المذكورة في المؤلفات اللاتينية، وأخيرا علم الري وتسيير المياه."¹⁹

كما أن للبربر حسب وارنبي نظاما قريبا ديموقراطيا، قريبا من نظام البلديات في فرنسا، حيث يسيّر القبيلة أمينٌ ينتخب من شعبه، ويساعده في التسيير مجلس بلدي منتخب هو كذلك، يسمى بـ "الجماعة"، ولا يعيب هذا النظام سوى غياب سلطة فعلية، وقوة عليا تحكم أفراد كل القبائل، وتدفع تلك المنازعات، والمشاحنات التي كثيرا ما تؤدي بأفراد القبيلة إلى رفع السلاح، وهنا ينبّه وارنبي إلى سهولة إدماج البربريين في المجتمع الفرنسي، وإخضاعهم لقانونهم، عكس العرب الذين تغدو المهمة معهم صعبة، تحتاج إلى وقت أكبر.²⁰

ويتوغل وارنبي داخل الأسرة البربرية، ليعلن وجود الفرق الشاسع بينها وبين الأسرة العربية، حيث أن البربري يقدر زوجته، وهو مخلص لها، غير معدد لزوجاته، ولذلك تجد تكوين أسرته محكما يخلو من الصراعات الداخلية بين الإخوة، والمرأة البربرية تبدو امرأة حقيقية، سيدة في بيتها، نشيطة لا تعتمد إلى استغلال العبيد للأعمال المنزلية، ليصل في النهاية للإعلان من أن البربر يؤمنون بالشخصية الفردية، ولذلك تتوفر عندهم الملكية الفردية، وهو ما سيسهل على فرنسا إرساء تطبيق قانون محكم وعادل للضرائب.²¹

وفي محاولة لبث الحقد والكراهية بين البربر والعرب بالجزائر، يركز وارنبي على حالة البربر المغموين بين العرب، وأن الجميع يظن أن العرب هم المتفوقون بأعمالهم، وحضارتهم، ومنجزاتهم، بينما يعود هذا التفوق في الحقيقة إلى سواعد البربر وجهودهم، ويعطي مثلا عن ذلك، أن المتواتر في الكتب وبين الناس من أن العرب هم الذين حملوا لواء فتح إسبانيا، لكن الواقع أن الفضل الأكبر يعود للعدد الضخم للمقاتلين البربر المكونين للجيش الفاتح، ولأمراء البربريين كذلك، الذين حكموا البلاد نيابة عن القادة العرب.²²

ولقد حاول وارنبي التشكيك في قيم العرب، كما سخر منهم مطولا، مقابل الإعلاء من شأن البربر لبعث النعرة القبلية، وتشويه صورة العرب والإسلام، فها هو ينسب كل العيوب للعرب فعين السخط لا تبدي إلا المساوي- إنهم فضلا عن كونهم أجاناب عن البلاد، وفدوا من آسيا، ومن صحاري الجزيرة العربية، لم يستطيعوا التأقلم مع السكان الأصليين، للعادة المتجذرة فيهم، وهي عادة الترحال، والتنقل من مكان إلى آخر، فهم غير مستقرين لا ماديا، ولا معنويا، وليس لهم أي حضارة تذكر، بل هم أعداؤها، وأعداء

العمل والنجاح، يعيشون على السرقة، وقطع طرق القوافل التجارية²³، وهم يسعون على الدوام إلى الهدم والتدمير، ودليل ذلك عادتهم في حرق الأراضي الرعوية في الخريف، وهو ما عانى منه المعمرون الذين كثيرا ما أصيبوا بنكبات لالتهم ألسنة النيران مزارعهم، حتى أن وارئني كان يشك من أن العرب كانوا يعتمدون فعل ذلك، لإضعاف قوى المعمرين، وإفشال خططهم التنموية.

وفي معرض مقارنته بين نظام القبيلة عند البربر ومثيله عند العرب وجد وارئني أن العرب يخضعون للنظام الأبوي، الذي يجعل من الأكبر سنا حاكما للقبيلة، لكن وصول هذا الشيخ إلى القيادة لن يكون بالانتخاب كما يحصل عند البربر، بل بالوراثة، وهذا النظام يسبب مشاكل جمة للفرنسيين؛ إذ بمجرد أن يقرر الشيخ والكبار إعلان الحرب، ينصاع الكل لهذا الأمر، كما أن حروب الفرنسيين مع القبيلة لا تنتهي بمقتل شيخها، وإنما تستمر الخلافات والحروب مع ابنه بعد ذلك، ثم أخيه، وعمه، وهلم جرا.. وهذا ما حدث مثلا مع قبيلة سي السليمان بأولاد سيدي الشيخ²⁴.

وفي أحد هوامشه يعيب وارئني على العرب ظاهرة تعدد الزوجات، الذي يساهم في شب خلافات بين أفراد العائلة، كما يزعم أن العربي لا يقدّر زوجته، ويجعلها من حيث الأهمية بعد المتاع والدواب، وهو بفرح لفقدها لأنه يمنحه فرصة أخرى في الزواج، بينما يحزن لفقد ابنته، لأنه يحرمه مما سيجنيه من مال عند تزويجها، كما أن العربي لا يستتكف من الاستعانة بالخدم في الأعمال المنزلية، وهو إضافة إلى كل عيوبه عديم الشخصية، حتى ليعجز المرء من كتابة ترجمة لأحد من العرب دون عرض تاريخ قبيلته، وعائلته²⁵.

والذي يقرأ كتاب وارئني منذ البداية سيلمس لا محالة التناقض الصارخ بين أقواله، وسيكتشف بعد ذلك تقنية التلوين بالأبيض والأسود للوحاته البشرية؛ لأنه وهو يقدم لكتابه يحكم على الجزائريين جميعا حكما سلبيا: واصفا إياهم بالشعب المعادي للعمل، والكسول، ذي العشائر الشرسة، والعوانية، مثله مثل طبيعته المتوحشة، وطقس أرضه غير المضياف، ويضع في المقابل صورة مضيئة ومنمقة للمعمرين، الذين يعادل الفرد الواحد منهم حسب وارئني ووفق إحصائيات شبه دقيقة²⁶ عشرة أفراد من الأنديجان؛ لما حققه من إنجازات فلاحية، واقتصادية وحتى عسكرية مشرفة²⁷، وهو ينحني إجلالا لهم لأنهم بذلوا جهودهم من أجل تحقيق حلم توسيع المملكة، بينما كان الأجدر بوارئني أن يدعو إمبراطوره إلى تحسين أراضيها، لا توسيعها، وقد صدق فولني عندما قال: "ما حاجتنا إلى أرض غريبة، في حين ما يزال السدس من أرضنا غير مزروع، ولم يتلق ما تبقى سوى نصف حظه من الزراعة؟ فلنفكر بتحسين ما نملكه وليس بتوسيعه، ولنتعلم التمتع بالثروات التي تحت أيدينا، وأن لا نذهب لممارسة الحكمة تحت سماء غريبة، في حين أننا لا نستخدمها في بيوتنا"²⁸.

1. حول الأنديجينا، وسياسة الإدماج لدى بول بورد:

تضمنت رحلة بول بورد مجموعة من الملاحظات، والذكريات، التي أخذها كاتبها عن رحلته مع النواب الفرنسيين من مرسيليا إلى الجزائر، كونه كان مراسلا صحفيا لجريدة المرشد العالمي (Moniteur universel) بفرنسا، وقد شارك في الجولة النيابية المكونة من ثلاثة أعضاء من مجلس الشيوخ، وواحد وثلاثين نائبا، وثمانية صحفيين، وخمسة كتاب، ولم تأخذ القافلة صفة رسمية، ولذلك استقبلها الشعب الجزائري بحفاوة، وكان الهدف المعلن عنه في بداية الرحلة متمثلا في حصر مشاكل السكان، ومحاولة

الوصول إلى حلول ناجعة لتحقيق التنمية في الجزائر، لكن الهدف الحقيقي كان البحث في هوية السكان، واختبار مدى طواعيتهم للحكومة المحتلة، وكذلك تحطيم المجتمع العربي، وإحلال محله مجتمعا آخر، منصهرا في العقلية الأوروبية، وقد بدا هذا الغرض في ثانيا الرحلة²⁹، عندما اصطدم بالحقيقة الواقعة، وهي وجود فرق شديد بين الفرنسيين والجزائريين، واستحالة زوال الأندجينا، وبالتالي كان يرى وجوب مسخهم، وطمس هويتهم، حتى يسهل العيش معهم³⁰، وكان مسار الرحلة واضحا انطلاقا من مرسيليا يوم الثاني والعشرين من شهر سبتمبر عام 1979م، في اتجاه الجزائر العاصمة، لاصطحاب الحاكم العام للجزائر آنذاك وهو م. ألبر جريفى (M. Albert Grévy)، ومن الجزائر توجه إلى عنابة، وقسنطينة، وباتنة، ثم بسكرة، فبجاية، ثم الجزائر مرة أخرى، وفي هذه المرحلة يتوقف مطولا ليخوض في مسائل سياسية خصت الحكم، والتنمية، ومسألة جعل الجزائر فرنسية، وبعدها جاء سرد أحداث السير والسفر إلى مدن الغرب الجزائري، وهي: وهران، وتلمسان، ليعود إلى سيدي بلعباس، ووهران، ومن هذه المرحلة كان الإبحار من مينائها، والمغادرة إلى مرسيليا.

لا يختلف بول بورد كثيرا عن سابقه وارنبي؛ لقد جاء إلى الجزائر وفي نيته أن يصورها لا بعين الفنان، أو الأركيولوجي، بل بعين المحب لوطنه³¹، فلماذا لن تغيب أبدا المصلحة الشخصية، والهدف الاستعماري من باله، لقد كان دائم التذكير خلال سرده الرحلي المطول، بسمو العرق الأوربي، وتفوقه الحضاري على الشعوب الأخرى، حتى أنه زعم أن الأرض للإنسانية جمعاء، وللأجناس العليا الحق في محاسبة الأجناس الأقل منها تطورا على الثروات التي بين أيديهم³²، كما أنه لم يدخر جهدا، أو حيلة، أو عذرا ليثبت مشروعية وجود الفرنسيين في الجزائر، وضرورته الأكيدة، وكذا حلوله الناجعة، التي تمحورت عادة عند بورد حول إدخال التعليم الفرانكفوني في حياة الشباب والأطفال، حتى ولو كان إجباريا، وتحسين ظروف المعيشة، وإزالة الخلافات بين الجيش والمعمرين، وبين المعمرين والأندجيان.

وافتح بول بورد رحلته بحديث مستفيض عن النشاطات الأوروبية الاستعمارية المعاصرة، والموزعة على مختلف دول العالم في إفريقيا، وآسيا، وأمريكا، وأستراليا³³، والمبرهنة على نجاحها مثلما حدث في الهند، ويافا الفلسطينية، وحتى أنه كان يحلم- وحلمه هذا كبير وخطير- أنه سيأتي اليوم الذي تتحول فيه كل أراضي المعمورة ملكا للأوربيين، ولأجل هذا هاجم بورد بشدة من يطلبون من فرنسا البقاء داخل حدودها، والعمل على إصلاح أراضيها فحسب، لأنهم بهذا الطلب يحكمون عليها بالتقهقر، والجمود، وضياح مكانها في صف الحضارة الأوروبية المتحرك، كما يردّ على الذين اعتبروا فرنسا ليست مستعمرة جيدة، من أنهم يقضون عليها بحكم الموت، والفناء، فالواجب عليها، والحتمي أن تمشي وفق التيار، وتجاري الدول الأوروبية الأخرى، كما ردّ على الذين يزعمون أن الأندجيان يستحيل تبديل عاداتهم وتقاليدهم، بأنه بالعكس هم على الدوام متغيرون، فالعرب المحدثون لا يحسنون ممارسة تقاليد الفنتازيا، والأندجيان بعد الاحتلال طوروا من أساليب زراعتهم، وتربية مواشيهم، وعوض الاكتفاء بإنتاج الصوف للاستعمال الذاتي، أصبحت لديهم تجارة نامية للصوف، وقد أراد بورد من خلال رحلته إثبات نجاح التعمير والاستيطان في الجزائر، وأنه في مستوى أحلامهم، فكم هي الوقفات التي أضاء فيها المشاريع المنجزة على أيدي الحكومة والمعمرين، وابتهج فيها بسيطرة

الطابع الأوربي على المدن الكبرى للبلاد، وبداية تأثر الأنديجان بحياة الأوربيين، وبعاداتهم في اللبس والأكل، والاحتفال.³⁴

وما يهمننا من رحلة بورد أكثر ليست سياسته الاستعمارية، ولا أحاديثه حول التنمية والإدماج، وإنما نريد هنا حصر ما يخص الأنديجان، ومعرفة طبيعة الصور، ونوعية الألوان التي قدّم بها بورد الأنديجان الجزائري على الخصوص، وهنا لا نعدم بالتأكيد السلبية في تصويره، ومحاولة أيضا التركيز على الفروق الموجودة بين العرب، والقبائل، والبدو الرحل، والموريسكيين، والميزابيين... وغيرهم، وإن كان أقل حدة في التمييز بين العرب والبربر كما رأينا مع وارنبي، لكنه يبدو متأثرا بما شاع في الكتابات المعاصرة التي قرأها، ونقل منها المعرفة الإثنوغرافية والأنثروبولوجية الخاصة بالأهالي، كما لم يستطع إخفاء طابعي الغرور والتعالي عن كل ما هو جزائري، ومشاعر الاستغراب، أو النفور، أو الاستهجان، أو السخرية، حيال مشاهداته الكثيرة في بلادنا.

ومن أهم الصور التي نلتقطها من رحلة بورد أن الأنديجان يمتد للباس الأوربي، لأنه يشد جسده شدا، وهو بالنسبة له لباس غير محتشم، لهذا يبقى مدثرا ببرنسه، ومع أن بورد تفهم رأي الفنانين والمختصين من أن هذا اللباس هو الأكثر ملائمة لطقس بلده، إلا أن الرهان الأكبر، والامتياز الوحيد حسبه هو أن يتحول عدد كبير من الأنديجان مهوسا بلباس من هم أسبق منهم حضارة.³⁵

ويخص بول بورد بالوصف الأطفال البسكريين، الواقع سنهم بين الثامنة والثانية عشر، والمنتشرين في الجزائر لممارسة عمل مسح الأحذية وتلميعها، والبسكري يلبس القندورة (صدار بلا كمين)، وشاشية حمراء، وليس له ثروة سوى علبة صغيرة فيها مشط، وعلبة أصغر بها دهان للأحذية، ويغتنم بورد الفرصة هنا للتقليل من شأن القندورة، حيث اعتبر طريقة قصها بدائية، مشبها إياها بالكيس ذي الفتحات الثلاث، واحدة لإخراج الرأس، واثنان للساعدين³⁶، ولاحظ اتساخ لباس الأنديجان، واستشهد بكلام أحد المعمرين، من أن المسلمين يكرهون الماء، ولذلك فالقندورة عند أحدهم لا تكون بيضاء سوى يوم ارتدائها أول مرة³⁷، كما عرّض بتصرفات الصبية السعاة الفضة، وتهافتهم على الرجال الأوربيين حتى يجنوا منهم بعض الفلوس، وهنا يخبر بأن ماسحي الأحذية يتنافسون فيما بينهم، ويديرون معارك هوميرية -كما قال- على الرجل الواحد، ويحاولون كسب الفلس منه، إما بمسح حذائه بعد إطلاق العبارة المتكررة: "Cirer, Msieu"، أو بحمل أي شيء له، مهما كان تافها بعد قوله العبارة المعهودة: "Porter, Msieu"، أو بالتسول والاستجداء صراحة عن طريق مد اليد وقول: "Un sou, Msieu"، أو بالتهريج لتسليته، وقد تصل الأمور مع الصبي إلى إيذاء نفسه كي يحصل على الفلس، مثلما حدث مع أحدهم، الذي طلب من الحاكم العام في مليانة صراحة بقوله: "Combien donnes-tu?" عندما أمره الحاكم برمي نفسه من جرف عال، ولا يخفى ما لهذه الصورة من قتامة، تدخل الحسرة على نفوس القراء المسلمين، ومن دلالة على قسوة قلوب هؤلاء الرّحالين، وعدم تأثرهم لحالة الصبيان، بل واستغلالهم الفرصة للتعريض بهم، واستعراض بلاغتهم في السخرية والهزاء، وكان الأجدر بهم أن يتساءلوا عن أسباب سوء أحوال الأنديجان وترديها، بينما يعيش المعمر الأجنبي عيشة كريمة، ومترفة، أليس الاستعمار السبب الأول؟، واللا مساواة التي يزعم الفرنسيون الدعوة إليها السبب الثاني؟، واستنزاف ثروات بلاد هؤلاء الأنديجان السبب الثالث؟ وغيرها من الأسباب التي تعود بالدرجة الأولى إلى وجود الفرنسيين في بلادهم.

وينتقد بورد ظاهرة كثرة قباب، ومزارات الصالحين، رغم اعترافه في موضع آخر، من أن فرنسا هي التي شجعت العناية بالصالحين، وبالإخوان المسلمين، والطرق الصوفية، مقابل إهمال البربر، وعدم الالتفات إليهم، وطبعاً يعرض بتلك المزارات، فيقول أنها متشابهة جميعها في كامل البلاد، ويضيف قائلاً: "فبعد المهندسين الممتازين لتلمسان انحط الذوق الفني لدى الأنديجان الجزائريين"³⁸، والحكم السلبي لم تسلم منه أيضاً هندسة منازل الجزائريين في "الأحياء العربية" منعومة النوافذ، وذات الأبواب المغلقة، تشيع فيها جوا مميتاً، خاصة الأحياء الخالية من المقاهي والدكاكين، وكذلك تخطيط طرقاتهم وشوارع أحيائهم، تظهر أكثر تعقيداً من المتاهة، تزيدها سوءاً أكثر المنحدرات الكثيرة، والسلالم المتعبة، وحتى الدكاكين أثارت استغرابه، لانخفاض مستوياتها، حيث لا يسمح للموجودين فيها بالوقوف مستقيمين، وقد لاحظ أن الشوارع مثلاً في قسنطينة موزعة حسب المهن، فيوجد شارع لصانعي الأقمشة الصوفية، وآخر للحدادين، وآخر للخياطين... وهكذا، وبدت له تلك المهن بدائية، وبسيطة في وسائلها، ويدوية لا ترقى إلى مستوى الصناعة الأوروبية، التي تقوم على استخدام الآلات المتطورة، لكنه كان يرى أن بين هذا العالم العامل تختفي أكثر العداوات الخافتة ضد المعمرين.³⁹

ويستمر بول بورد في تقديم انطباعاته عن الأنديجان، فيقارن بين العرب والبربر، وبين العرب المتمدنين، والبدو الرحل، والموريسكيين، فيصرّح بداية أن الأنديجان بصفة عامة يؤمنون بالخرافات، ولا يسمح جهلهم بتعليل الظواهر، لذلك يبحثون عنها فيما هو فوق-طبيعي، وفي مخيلتهم الخصبية، ولهذا السبب نجد عدداً ضخماً من الأساطير التي زرعا الأنديجان في البلاد: "فكل نبع، وكل نافورة، وكل جدول، وكل صخرة، وكل جبل، وكل مغارة، وكل ظل، وكل بناية، حتى ولو كانت بنايتي، يرى على أنه من خلق الله، أو من صنع أحد الصالحين"⁴⁰، والأنديجان بسيط في حياته، فأربعة فلوس تكفيه ليتغذى مقابلها غذاء دسماً، يتكون من خبزة وشواء وعنفود عنب، وشربة ماء مجانية من نافورة المدينة، ثم فنان قهوة من المقهى الشعبي، ليلتحف بعد ذلك في برنسه، وينام في مكان بلائمه، فيحلم بكلمة افتح يا سمس لتدخله مغارة علي بابا، وتظهر السخرية واضحة في هذا الحديث، تعبر عن سياسة التشويه والمسح، ونشر الصور، والكلشيهات الزائفة، تبريراً للأفعال القاسية والوحشية الممارسة ضد الأنديجان، ولعل موقفه من القرار الصادر عام 1977، القاضي بإخراج الأنديجان الساكنين بالأراضي الغابية بعنابة، تفادياً للحرائق المتكررة في المنطقة يبرهن على ذلك؛ فقد رأى بورد أن القرار غير إنساني، لكنه بعد ذلك يعلق قائلاً أن هذا الفعل سيزرع الكراهية بين الأنديجان والمعمرين، وهي أساس كل نزاع بين هازم ومهزوم⁴¹، فالمخاوف كانت على أن تقوى الهوة بين الطرفين، فتفشل سياسة الاحتلال، لا شفقة على الأنديجان المشردين، والمبعدين من أراضيهم، ولم يعدم بول بورد في كثير من المواقف الإحساس بكراهية الأنديجان لهم، وهي التي تعكسها نظرتهم، أو حتى ابتساماتهم.⁴²

وإضافة إلى البدائية، والبساطة التي لاحظها بورد في حياة الأنديجان، وجد مظاهر أخرى فيهم، كالجمود، وعدم الابتكار، والتقص في الحياة، وكان ذلك عند وصفه لصانع زرابي، لا يجدد في رسومه، ولا في ألوانه، وهو يربح مالا كافياً من حرفته، وبذلك عد الصناعة لدى العربي مربحة أكثر، لأنه يعمل تحت ضوء الشمس، فلا يستهلك الطاقة: "وهو يعيش في حجرة يرفض كلابنا العيش فيها، ويستطيع العيش على حبتى صبرة، أو ثلاث."⁴³

وفصل حديثه عن الموريسكيين، والعرب، والقبائل، والميزابيين، فيقول أن الجالس في سطح مقهى بقسنطينة يستطيع أن تمر على ناظريه في بضع ثواني مختلف أجناس الجزائر، وهم يتغايرون في لبس إما القندورة أو البرنس باختلاف الألوان، كما نميز بعضهم عن بعض في القامة، وشكل الأنف، ولون البشرة، والمهن الممارسة، وطبيعة الحياة عندهم من استقرار، أو ارتحال.⁴⁴

أما انطباعاته حول المرأة الجزائرية، فهي لا تخرج عن الإطار السلبي دائما، فقد نال الخيبة، وكان يحمل معه قبل رحلته إلى فرنسا صورة حاملة عن الجمال الشرقي، إن النساء الجزائريات حسب بورد العربية، واليهودية، والقبائلية على السواء تشتركن في عيب واحد هو البدانة، إضافة إلى كون المرأة الجزائرية انعرالية، ومتخلفة، منعومة الثقافة، ليس لها ذلك الجمال الفتان، وليس للجزائرية تلك الرقة واللفظ الذي تمتاز بهما المرأة المتحضرة، ويعلق على الحايك الذي تلبسه العربية، من أنه ذو لون أزرق قبيح، لم ير شيئا أقبح منه، وهو يلف المرأة لفا، فلا يظهر منها شيئا.⁴⁵

3. لويس ريجيس، العطف على الأنديجان، ونقد سياسة الكولون وتصرفاتهم في الجزائر:

لويس ريجيس كاتبة فرنسية أقل شهرة من مواطنيها وارنيي وبورد، وقد ظهرت للقراء عام 1979م، بعملها الأول "رحلة إلى بسكرة" مقنعة بشخصية رجل، لكن شخصيتها الأنثوية بدت واضحة، واكتشفت بعد ذلك عندما كتبت: "قسنطينة رحلات وإقامات"⁴⁶، وهي الرحلات التي قدم لها الكاتب مزيار، وهو أحد الأكاديميين الفرنسيين، ثمن فيها المؤلف الرحلة، واستظهر مواطن الجمال والشاعرية، فيما قدمت الكاتبة من وصف للمظاهر الطبيعية بالجزائر، وما صاغته من أساليب تخيلية وتصويرية رقيقة حساسة، تنبئ عن رقة الكاتبة وخصوصية مخيلتها، وعن شدة ولعها بالطبيعة، لكن مزيار يعترض في خاتمة تقديمه للكتاب على القسوة الكبيرة التي بدت عليها الكاتبة حيال المعمرين الفرنسيين، ونقدها المتكرر لسياساتهم، ومشاريعهم، وعطفها في المقابل على العرب⁴⁷، ودفاعها عنهم.⁴⁸

وقد اتبعت الكاتبة أثناء رحلاتها مسارا واسعا، لم ينحصر في الجهة الشرقية من البلاد الجزائرية، بل تعداها إلى ناحية الوسط، وتحديدا الجزائر العاصمة، والبلدية، والمدينة، وهي المدن التي زارتها في رحلتها الأولى، وقد كانت بداية السرد تصور نزولها بميناء سكيكدة المسماة آنذاك "فيليب فيل" أيام الاحتلال، لتتوجه بعد ذلك إلى مدينة قسنطينة، في اليوم الخامس عشر من شهر مايو عام 1879م، ودامت إقامتها أكثر من أربعة أشهر، لتغادرها بعد ذلك، متوجهة إلى باتنة في اليوم الثالث والعشرين من شهر سبتمبر، وبعد إقامة ثلاثة أيام تصل لويس ريجيس إلى بسكرة، فتزور المدينة ونواحيها كأولاد نابل، وسيدي عقبة، وتعود بعد خمسة أيام إلى باتنة، فقسنطينة، وقررت بعد هذه الجولة الشرقية أن تيمم وجهها غربا لزيارة بجاية، والجزائر العاصمة، والبلدية، والمدينة، وكانت الطريق في البداية برية من قسنطينة إلى برج بوعريبيج بواسطة عربة جياذ، ومنها توجهت برا أيضا إلى بجاية، لتأخذ طريق البحر، من ميناء المدينة، للوصول في البداية إلى دلس، ثم التوجه إلى الجزائر، وبعد اكتشاف المدينة وضواحيها تقرر السفر عبر القطار إلى مدينة البلدية، وذلك في اليوم العاشر من شهر أكتوبر، ومنها قامت بجولة في الشفة والمدينة، وكانت عودتها إلى الجزائر ثم فرنسا عبر البحر ومرسليا، واستطاعت لويس ريجيس الرجوع إلى البلاد الجزائرية مرة أخرى فوصلت ميناء سكيكدة في اليوم

الرابع من شهر مايو 1880م، ثم قصدت قسنطينة فزارت سيدي المسيد، ونعمت بإقامة دامت قرابة الشهرين، ولكنها عادت هذه المرة بسرعة إلى فرنسا، وذلك في اليوم الواحد والعشرين من شهر جوان.

وتنوعت موضوعات رحلة لويس ريجيس، وتوزعت بين التاريخ والدين، والثقافة والمجتمع، والسياسة والاقتصاد، وكان هدفها دائما في تناول هذه الموضوعات تعريف قرائها الفرنسيين بما يخص الجزائر والجزائريين، وسياسة التعمير والمعمرين، وركزت أكثر على عادات الأنديجان بمختلف جنسياتهم، وخصوصياتهم الإثنوغرافية، لكنها خصصت صفحات أكبر للأنديجان العرب، فعرضت بالحديث عن الحياة اليومية للرجال والنساء، وكل ما لاحظته أثناء رحلاتها، مما يشكل موضوعات مثيرة وفنطازية للأوربيين، واجتهدت في إعطاء معلومات غزيرة، ودقيقة مدعمة بنصوص من القرآن الكريم، والحديث الشريف، وكلام رجال الدين، والسياسة، والمؤرخين، ومن بين موضوعات الكتاب نذكر: العيساوة، والإخوان الصلحاء، والإسلام، وكتاب القرآن الكريم، والرسول محمد عليه الصلاة والسلام، وزوجاته⁴⁹، وكذلك عادات العرب في مزاوله أعمالهم، وزيارة النساء للمقابر يوم الجمعة، وعادة حمل الغذاء إلى المقابر، وتفصيل حول مساجد العرب المسلمين، وزواياهم، وبيوتهم، ومقاهيهم، ومطاعمهم، وحماتهم، كما طرقت مسائل عديدة عن عادات الزواج والطلاق، ويوميات المرأة العربية، ولباسها، وأوصافها الجسمانية.

وعندما نتتبع مظاهر الاستحسان لدى الكاتبة، نجدها في الغالب تميل إلى الطرف الجزائري، وإلى كل ما هو محلي، لم تصبه اليد الأجنبية بالتبديل، ولذلك تفتتح لويس ريجيس رحلتها بانطباع خاص حول مدينة قسنطينة، التي وجدت ما تزال حتى سنة سفرها إليها تحافظ عموما على طابعها المحلي، لكنها تتأسف كون هذه الحال لن تدوم طويلا، لأن مشاريع إنجاز أحياء أوربية، وتهديم البيوت العربية بدأت تأخذ مجراها الصحيح والسريع في المنطقة، وهو المسعى الذي عدته الكاتبة أخرقا، وغير موفق؛ إذ ستفقد قسنطينة زوارها من سكان الصحراء الميسورين، وشيوخ القبائل الجنوبية المتعودين على التنقل للإقامة بقسنطينة خلال فصل الصيف، وقد يفهم القارئ لأول وهلة أن الكاتبة تتحسر على افتقاد هؤلاء الجزائريين للمدينة، وللطقس أقل قساوة من الطقس الصحراوي، لكنه سيكتشف سريعا أنها تتحسر على الفائدة التي ستضيعها فرنسا بغياب شيوخ القبائل الصحراوية عن قسنطينة، وهي التي استفادت منهم طوال مدة غزوها للمدينة والعمالة، عن طريق مدها بالمعلومات الثمينة عما يجري في أطرافها.

لكنها تبدو في مناسبة أخرى صديقة الطبيعة، حيث استحسنت الجمال الآخاذ للمناظر الواقعة بين القنطرة: **"أول مرحلة تشاهد فيها الطبيعة المشرقية حقا"**⁵⁰ وبسكرة التي جعلتها تستشف: **"الحياة الإقطاعية للعربي مقابل الحضارة الفرنسية، والطبيعة بحليتها الطبيعية بجانب الحدائق التي صفت بأيدي الكولون، لا تشبه بسكرة فرنسا في أي من موجوداتها."**⁵¹

ولا يمكن ذكر جميع الملاحظات، والصور التي سجلتها الكاتبة لويس ريجيس عن الجزائريين، كونها كثيرة، وسننتقي عددا منها للتمثيل لا للحصر.

تجد لويس ريجيس الجزائريين من الفئات المظلومة في الجزائر، لم يحسن الفرنسيون فهمهم، وهي تجد الأعذار لهم، كلما سجلت ظاهرة سلبية فيهم، والأنديجان الجزائري حسب الكاتبة متدين، لا يقبل دينا آخر بديلا عن الإسلام، الذي بلغه محمد عليه الصلاة

والسلام للعرب، وهم مكرمون به، فإن تخلوا عنه أذلهم الله، ولذلك رأت الكاتبة أنه من الطبيعي أن يرفض المسلمون الاندماج في حضارة أوربا واعتناق ديانتها، ما داموا يؤمنون بهذه الفكرة، وتعبّر عن إعجابها، بصوت المؤذن، وكذلك بإخلاص الأنديجان لدينهم؛ فهم يجتمعون في المساجد لأداء الصلوات اليومية في هدوء تام، ويكونون يوم الجمعة أوفر عددا، لا يشعرون حتى بالوافدين على المسجد من الأجانب، وهم يؤدون طقوسهم الدينية، إلا أنها تأسفت لحرمان المرأة من دخول المساجد في الجزائر، باستثناء عين ماضي، وهي لا تضيع الفرصة هنا لتوجه انتقادها لمواطنيها، حيث تقول أن المرأة هي الحاضرة بقوة في الكنائس، وأن الرجال من المسيحيين قد أهملوا عباداتهم: "فلو كان الرجال في كنائسنا هم المرغوب فيهم فحسب، لكانت -وأخشى ذلك- صحاري قاحلة"⁵²

وأكدت لويس ريجيس ما كان نفاه بول بورد، إذ قالت أن العربي -وتقصد المسلم الجزائري- دائم النظافة، وأسنانه بيضاء يكفلها له الوضوء لأداء الصلوات الخمس يوميا، وهو يعمل بما يُنصح به في دينه، إلى حدّ المبالغة وعدم احترامه للآخرين، إذ لا يتوانى من الركوع والسجود في أي مكان في الشوارع بعد نزع نعليه، ولا يستحي من المارة، ولا من الأجانب الذين قد يظهرون تبسما استهزائيا حيال تلك المناظر.⁵³

ويظهر الأنديجان في عين الكاتبة لويس ريجيس رجالا بسطاء وكرماء، حيث حظيت بضيافة عدد منهم، خاصة شيوخ القبائل، والقياد، وهم أيضا ذوو أخلاق وعادات حسنة، تظهر في حرارة لقاءاتهم، وتواضعهم، ولهم عزة نفس، لكنهم يحترمون المراتب والطبقات، يظهرون احتراما شديدا لكبار السن، وتوقيرا لرجال الدين والعلم، والمرابطين والصالحين، ولهذا السبب ولحث الإسلام على حسن معاملة أهل الكتاب يحترم الأنديجان أيضا الكهنة ورجال الدين المسيحيين، وتستثني فئة العيساوة، الذين وجدتهم غربيي الأطوار، لهم طقوس مخيفة ومقززة، وهم غير ملتزمين بدينهم، مهملين لصلواتهم، يعيشون حياة كسل، ولهو، يتعاطون الحشيش، ويتمددون في الساحات والشوارع نصف أموات بسبب مفعول تلك المخدرات، وترجع إلى أصولهم المغربية، فتفصل الحديث عن جدهم الأول، وأتباعه في المغرب الأقصى، وسبب توزعهم في مدن الجزائر وتونس إثر ذلك⁵⁴، كما تنتقد فئة الشباب من الطبقة الأرستقراطية التي لا تمنع من الجلوس بجانب الدكاكين، ومراقبة المارة، والزبائن، وخوض الكلام الفارغ، وحتى القول بالنميمة، وعدم استغلال الوقت في المطالعة مثلا، ولاحظت كذلك ذلك التمييز الذي يحس به العربي بين الابن والبنات، فولادة أنثى هي أقل إثارة للفرحة في العائلة من ولادة ذكر، وتعلل ذلك بالطبيعة المحاربة للعربي، حيث يعد مجيء ولد عنده حدثا سعيدا، لأنه مصدر قوة وسيطرة.⁵⁵

وتسجل لويس ريجيس ظاهرة جمال المرأة القسنطينية، وتهجو في المقابل المرأة اليهودية، وهنا نلاحظ التناقض بينها وبين بول بورد، الذي نفى وجود الجمال المتميز في المرأة الجزائرية، وهي الوحيدة بين الرحالين التي وجدت شيئا بين المرأة العربية البدوية والقرويات الفرنسيات في حالة النشاط والعمل الدائم⁵⁶، كما أنها انبهرت لجمال بعض النساء اللواتي صادفتهن في مقبرة قسنطينية، وكذلك في منطقة القنطرة التي اشتهرت على الخصوص بجمال نسائها.⁵⁷

ولاحظت لويس ريجيس احترام الأنديجان العرب لموتاهم لدرجة ترك السماح لنسائهم بزيارة المقابر يوم الجمعة، فحتى النساء المحجبات تجدهن يخرجن في ذلك اليوم مع الخادمت، راكبات على الحمير والدواب، رغم قصر المسافة، كما أن للعرب طقوسا

خاصة في الدفن والتأبين، وتتأسف لعدم احترام الكولون لمقابر المسلمين، فهم لا يرحلون من إزالة مقبرة بمجرد أن تقع ضمن مخططاتهم في إنشاء طرق، أو مستعمرات جديدة.⁵⁸ وتقف الكاتبة موقف تأمل في حال الأنديجان العرب، فتتأمل لو أن الجزائري يغتنم الفرصة ويتقرب من مؤسسات فرنسا التعليمية، بل أنه لا يتردد في طرق الدراسات العليا، فهو ليس أقل ذكاء من الأوربي، لكنه للأسف: "من جنس محارب، وطبعاً مستغرق في تأمله الديني، ولذلك فلن يندمج معنا إلا بعد مجهودات قوية، وبقرار حاسم سيكلفه الكثير، حتى يستطيع دخول مجرى الحياة والكينونة الأوربية".⁵⁹ لكنها بحثت عن سبب قلة إقبال العرب على الدراسة، فترى أن المشكل واقع في سياسة الحكومة ذاتها، التي لم تفتح أمامهم أبواب واسعة للعمل والوظائف، فليس لهم سوى أربع مراتب: قائد، أو قاضي، أو شيخ، أو صبايحي، ولعله من الواضح سبب ترك هذه الوظائف للجزائري، حيث أن جميعها تخدم في الواقع الحكومة الفرنسية، والسياسة الاستعمارية، فالفايد حامى أراضي المعمرين، والقاضي المتخرج من مؤسسات فرنسا الثلاث، سيحكم بما ترتضيه هي لا بما يرتضيه دينه، والشيخ يوجه قبيلته نحو السلم والمصالحة، والصبايحي يعين على إرساء قواعد الأمن والطاعة في البلاد.

وقد انتقدت لويس الكثير من مشاريع المعمرين، ووجدتها غير صالحة، كمشروع الصحراء الداخلية، الذي لم تهضمه الكاتبة أبداً، فبينت عيوبه، ومخاطره، كما استهجنّت هدم البيوت العربية والمورسكية التي وجدتتها شاعرية، مع أنها غير متقنة وعملية كالبيوت الأوربية، لأنها تجد هذا الفعل مضيقاً للمميزات الخاصة للبلد، ولألوانه الأصلية، كما عابت على المعمرين إكثارهم من المشاريع دون إكمالها بحجة أن البلد فتي يحتاج إلى ذلك، فتدعوهم إلى التركيز على القليل وإنجازه على أكمل وجه، حتى أنها تستعير لإقناع المعمرين بكلامها أبياتاً من الشعر للشاعر لافونتين، يقول فيها:

"الكثير من الحيل قد تفسد الصفقة نضيق الوقت في الاختيار، نبادر، ونريد فعل كل شيء ليكون عندنا شيئ واحد فقط، غير أنه جيد".⁶⁰

وفي المقابل استحسنّت مشاريع إنشاء سكك حديدية للنقل البري، لأنه هو الكفيل بتطوير الاقتصاد، والسياحة في البلاد، وفي الأخير رأت أن سياسة التعمير في الجزائر تحتاج إلى وقت وصبر، وأن رغبة فرنسا في إرساء مؤسسة قوية بهذه السرعة، هي خطيرة، وقد تؤدي إلى نتائج عكسية، وقدمت المثال والعبرة بالقرطاجيين الذين احتاجوا مائتي سنة، والرومان أكثر من مائتين سنة ليضعوا القواعد الصلبة للتعمير.⁶¹

4 أوغست باسيت: النظرة الاستعمارية، والصور الزائفة عن الأنديجان:

ألف أوغست باسيت رحلته في أواخر القرن التاسع عشر (1896م)، وكان رجلاً عسكرياً، بدأ حاقداً على الجزائر وأهلها، متحيزاً للجهة الفرنسية، وجاءت الرحلة أيضاً مثل الكثير من الرحلات التي أنجزت لأغراض التجسس، ومعرفة خصوصيات المجتمع الجزائري وأسراره، وكان التوغل داخل البلاد ليس بسبب الفضول، وإنما لأهداف عسكرية سياسية بحتة، لكن الكاتب أعلن في بداية رحلته عن دافعين في السفر والكتابة، فكان الأول يخص رغبته في تحقيق الحلم الذي طالما راوده وهو في الثانوي، بعد قراءته للرحلات المشوقة إلى الجزائر، والحكايات الجذابة عن الأعمال الحربية للجنود الفرنسيين فوق أرضها، أما سبب الكتابة، فكان لتحبيب المستعمرة الجزائرية للفرنسيين الزاهدين في الاستيطان بها، عن طريق التعريف بجمالها، وثرواتها، وهو يقدم شكراً وامتناناً للقمل النباتي الذي أصاب كروم فرنسا، لتنتج الأنظار والأجساد نحو أراضي الجزائر وكرومها

المنتجة⁶²، وهو بذلك يفتتح أحداث رحلته بالتخوف الذي يحمله في قلبه من العدد الكبير للأهالي، الذي بلغ في آن الرحلة ثلاثة ملايين، ومن اتحاد هؤلاء مع المعمرين الأجانب البالغ عددهم مائتين وأربع وثلاثين ألفا نسمة من مجموع مائتين وسبعين ألفا معمرًا، وبذلك يمثل الفرنسيون في الجزائر الأقلية بعدد ست وثلاثين ألفا فرنسيًا فقط⁶³. وانحصرت رحلة باسيت في زيارة الجزائر، والمدينة، والشلف، ووهران، ثم العودة منها على الشلف، فالجزائر، للوصول إلى برج بوعريريج، وقسنطينة، وعين مليلة، وباتنة، ثم بسكرة.

ويفتتح باسيت رحلته خلال سرده أحداث جولته في مدينة الجزائر بسرد تاريخي موجز عن الحملة الفرنسية على الجزائر، مظهرًا فيها صراحة النية المبيتة لاحتلال البلاد، حتى قبل حادثة المروحة، بل إن القنصل قد تلقى أمرا باختلاق الخلاف بينه وبين داي الجزائر، حتى تكون ذريعة وحجة للاقتحام، ويتبع حديثه التاريخي بقول للداي حسين أثناء نفيه بباريس، من أننا إذا ما وضعنا في قدر واحدة جزائري وفرنسي سنحصل بعد الانتظار على حساءين متفرقين، وهو ما يدل على أن الجزائري والفرنسي بمثابة الماء والنار، أو الماء والزيت لا يلتقيان، ولعل تعليق باسيت على قول الداوي بأنه لا يزال حاقداً كارها لفرنسا يدل إما على غفلته، أو تغافله عن حقيقة الجزائريين، واستحالة إدماجهم مع الفرنسيين.

وتشيع في رحلة باسيت الانطباعات السلبية عن الإنسان الجزائري، مقابل إظهار أشكال الجمال والتناغم في الطبيعة الجزائرية، وهو يؤكد الكثير من العيوب التي زعم الرحالون السابقون وجودها في الأندلس الجزائري، كالوحشية والعنف، والفوضوية، والكسل، وإهماله للشعائر الدينية في حياته اليومية، وعدم طواعيته حيال الجديد، وغيرها من الصور السوداوية.

يحاول الكاتب باسيت منذ بداية دخوله الجزائر تقديم الجزائريين على أنهم شعب غير متحضر، متوحش في معاملاته مع الآخرين، بدائي في بناءاته، وهي الصفات التي استشفها من الحشد الفوضوي للحمالين في الميناء- كما أخبر- الذين كانوا يقتلعون الحقايب من الركاب عنوة، ويأخذونها خارجا نحو العربات، وكذلك من تلك المنازل البدائية المسماة بالقرابة، وهي التي لا ترتفع عن الأرض أكثر من مترين، والتي تفقد الجمال والحس الفني.⁶⁴

ويركز باسيت على أهل المناطق المقاومة، فيسرد أحداث وقوفها ضد الفرنسيين بكثير من الحسرة والمقت، والحق على أبطالهم، ففي كل مدينة يدخلها تأخذة الذكرى إلى تلك الحوادث الأليمة بالنسبة لديه- التي راحت ضحيتها أرواح فرنسية من الجنود أو المعمرين كحادثة غدر شيخ التوارق صغير بن شيخ للعقيد فلاتر (Flatters) وجنوده، بعد كسب ثقتهم بالمدينة⁶⁵، وطبعا لا نثير فيه تلك المجازر المريعة ضد الجزائريين كحادثة قتل أولاد رياح في غليزان على يد الجنرال بلسي (Pélissier) سوى الافتخار بالقوة العسكرية، والذكاء الفرنسي، ونقد التعنت، والعناد الجزائريين.⁶⁶

ويسجل باسيت في رحلته ما شاهده من عادة التسكع لدى الجزائريين في الشوارع والساحات العامة، وجلوسهم المطول، واستراحتهم غير المنتهية في المقاهي الشعبية، كما أخبر بظاهرة إهمال الأندلسيين للأعمال الفلاحية وتفضيلهم العمل في المدن كحمالين أو نادلين في المقاهي الشعبية، كما أنهم مهملون كذلك لواجباتهم الدينية قبل الزواج، فالشباب الجزائري لا يتوجه إلى المساجد، ولا يمتنع من تناول الشراب المسكر المصنوع من مادة

الأفستنتين، لكنه بعد الزواج يصبح من جديد كما قال باسيت مسلما، والحال نفسها مع كبار السن من الذين عملوا سنوات في الجيش الفرنسي لكنهم بعد تقاعدهم لا يستطيعون مقاومة ذكريات الطفولة، ومشاعر التعلق والانجذاب إلى وطنهم، فتجد الواحد منهم يرجع مرة أخرى إلى موطنه، ويمارس من جديد تعاليم الإسلام، ويندمج مرة أخرى في المجتمع الجزائري، وكما قال النائب الفرنسي كومب (Combes) أن هؤلاء المتقاعدين العسكريين من الأنديجان تصيبهم بعد نهاية خدمتهم نوستالجيا الصحراء، فيديرون ظهورهم للحضارة الأوربية.⁶⁷

وعقد باسيت مقارنة بين اليهود والميزابيين في الجزائر، فوجد شيئا بين الطائفتين؛ إذ كلاهما يفضلان ممارسة التجارة، وكلاهما يحبان كسب المال، والربح والفائدة، مع فرق أن اليهود يأخذون فوائد كبيرة على الأموال التي يقرضونها للناس، ويشتررون بالأموال الأراضي الفلاحية.⁶⁸

وشاهد الرحالة باسيت وهو في محطة القطار بغليزان، وهي نقطة التقاء الخط مع خط تيارت، وهنا تتوقف مجموعة كبيرة من عربات الحلفاء، قافلة في استراحة، يصل عدد جمالها خمس مائة جمل، يصدر عن هذه الجمال من وقت إلى آخر صيحات غامضة، قد تعبر عن الشقاء، أو الألم، وهي اللغة الوحيدة لهذه الحيوانات الخادمة المتواضعة⁶⁹، وهذا التعليق يذكر بالصورة المشوهة المتعارف عليها لدى الأوربيين عن العرب والمسلمين، من أنهم يتصفون بالقسوة على الحيوانات، إضافة إلى الصور الأخرى، كالسذاجة، والغباء، والتملق المفرط، والخداع، والكذب.

ولا يمكن أن ننهي تسجيل انطباعات باسيت دون الإشارة إلى تلك العبارات الساخرة التي أطلقها عن الإسلام، وعن رسولنا الكريم، حيث يدعو ساخرا الله والرسول والأولياء النجاة، وبعد بالشكر لهم بعد ذلك، كما ينهي ليلته الجميلة لمشاهدة راقصات أولاد نايل في بسكرة بأمنية مشاهدة الجنة والحوريات تحطن به من كل جانب، وهذا ما يمكن عده من التعصب الديني والتعالي بالذات، مقابل استصغار عقيدة الآخر، والاستهزاء برموزها.⁷⁰

خاتمة:

وهكذا نصل في ختام هذه الدراسة إلى استنتاج الأشكال والصور التي سُجلت في كتب الرحالين الأربعة: الدكتور وارنيي، والصحفي بول بورد، والكاتبة لويس ريجيس، ورجل العسكرية روني باسيت، هؤلاء اتفقوا على إشاعة الانطباعات السيئة، وإطلاق الأحكام السلبية عن الأنديجان، مع تفاوت في درجة هذه السلبية، حيث نجد لويس ريجيس أقلهم حدة، وأعطفهم على الجزائريين، رغم ذلك يظهر الرحالون ذوي عقلية استعمارية من الدرجة الأولى، أحلامهم ضخمة، وطنيين للغاية، إلى درجة أنهم بذلوا مجهودا كبيرا في تكريس السياسة الاستعمارية، وإعلاء الجنس الأبيض، ومحاولة بث الشقاق بين أبناء الجزائر، وهم كثيرا ما وضعوا مفارقة بين صورتين: صورة الأرض الجميلة، والخصبة، والساحرة مقابل صورة الإنسان المتوحش، والكسول، عدو العمل، والبدائي،... كما قابلوا بين الجنسين العربي والبربري، ليضعوا البربر في الزاوية البيضاء المشرفة، والعرب في الزاوية السوداء، كما قابلوا بين الأنديجان الجزائري ونقيضه المعمر الأوربي، وبطبيعة الحال كان المعمر الغربي مثال النشاط، والحيوية، والأناقة، والتحضر، بينما كان الأنديجان الجزائري عكسه تماما، مثالا للخمول، والتهاون، وإهمال الأرض، والتخلف.

الإحالات:

- ¹ يمكن تعداد عدد من الرحلات الفرنسية إلى الجزائر خلال القرن التاسع عشر، ونذكر:
- D'Ault -Dumesnil, Edouard, *l'Expédition d'Afrique en 1830*, Paris, Delaunay éditeur, 1832.
- Solleillet, Paul, *Voyage d'Alger à l'Oasis d'In Salah*, Typographie et Lithographie, Alger, A. Jourdan, 1875.
- Ratheau, Alexandre, *l'Algérie Vue a Titre d'Ailes, ou Lettres d'un oiseau de passage*, Alger, librairie algérienne et coloniale, 1879.
- Ambroise, Tardieu, De Paris au Sahara, Itinéraire Descriptif et archéologique aux villes romaines de Lambèse et de Timgad., Batna, Imprimerie F. soldati, 1890.
- ² فصل المفكر إدوارد سعيد في مسألة الكليشيهات، أو الصور الخاطئة التي أخذها الغربيون عن الشرق وأهله في القرون الوسطى وما بعدها في كتابه "الاستشراق"، ينظر:
- إدوارد سعيد، الاستشراق، تر. كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1981.
- ³ مي عبد الكريم محمود، تائهون في صحراء الإسلام، صورة الصحراء العربية في كتابات الرحالة والمستشرقين الفرنسيين، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، سورية، ط. 1، 2003، ص. 8.
- ⁴ حسين مجاهد فهم، أدب الرحلات، عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989، ص. 151.
- ⁵ مي عبد الكريم محمود، تائهون في صحراء الإسلام، ص. 9.
- ⁶ عمار السنجرى، البدو بعيون غربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط. 1، 2008، ص. 7، 8.
- ⁷ تعد التقارير المختلفة من بين الأنواع الفرعية لجنس الرحلة، تنضم إلى ما يعرف باليوميات، والتحقيقات الصحفية، والرسائل، والسير الذاتية، التي تكتب بعد إنجاز الرحلات، وتحمل جميعها مادة ناتجة عن تجربة السفر والترحال.
- ⁸ Warnier, A, *l'Algérie devant l'Empereur*, Paris, Challamel Aîné, 1865.
- ⁹ Bourde, Paul, *A travers l'Algérie*, Paris, G. Charpentier Editeur, 1880.
- ¹⁰ Régis, Louis, *Voyages et Séjours*, avec une introduction de A. Mézières Paris, Galmann Lévy Editeur, 1880.
- ¹¹ Besset, Auguste, *A travers l'Algérie d'aujourd'hui*, notes et croquis, Chagny, Imprimerie Roy Frères, 1896.
- ¹² وجه مارتين هنري لجريدة المرشد العالمي وللنيابي جيفولت Guérout رسالة يمتدح فيها الدكتور وارئني ويشاطره الرأي فيما أعلنه عن البربر والعرب، ينظر: كتاب وارئني، الجزائر أمام الإمبراطور، ص. 10.
- ¹³ ألف كاريت M. Carette كتابا بعنوان: "دراسة حول بلاد القبائل".
- ¹⁴ وهو M. Berburgger مؤلف كتاب: "الفترات العسكرية لمنطقة القبائل الكبرى".
- ¹⁵ قدّم وارئني إحصاء لعدد الأندليجان المسلمين، فجاء كما يلي:
البربر: 1.000.000 نسمة.
البربر المستعربون: 1.200.000 نسمة.
العرب: 500.000 نسمة.
- ¹⁶ ينظر: المصدر نفسه، ص. 14.
- ¹⁷ المصدر نفسه، ص. 8 من المقدمة.
- ¹⁸ المصدر نفسه، ص. 13-14.
- ¹⁹ المصدر نفسه، ص. 15، ويشير في هامش كلامه أن العرب ينفرون من الخنزير لتحريم القرآن أكله، كما تقدّم مثالين عن عدم تدين البربر الفعلي بالإسلام، وجود كنيسة وقرية يخدمها كاهن لصالح المسيحيين في جزيرة جربة التونسية، كما أن رسالة بعثت لوارثيني من قبل أحد كبار رجال الدين في منطقة جرجرة، وفي إحدى القرى البربرية تفيد من أن سكانها قد أبدوا رغبة في الرجوع إلى المسيحية بعد دراستهم للإنجيل.
- ²⁰ المصدر نفسه، ص. 16.
- ²¹ المصدر نفسه، ص. 18، 19.
- ²² المصدر نفسه، ص. 24، 26، 27.
- ²³ المصدر نفسه، ص. 4.
- ²⁴ ويعبر وارئني عن امتنانه لمساعدة البربر في إنجاح التجارة الفرنسية عبر الصحراء، بإمدادهم بالرجال والجمال، عكس العرب الذين كانوا يتصدون هذه القوافل، وينهبونها تحيا.
- ²⁵ المصدر نفسه، ص. 19، 20.
- ²⁶ المصدر نفسه، ص. 25، 26.

²⁶ يسجل وارنبي إحصاء للسكان، يفيد أن عدد الأنديجان يفوق عدد المعمرين عشر مرات، بينما الإحصاء الضريبي يفيد من أن العمر الواحد يدفع مبلغا يفوق ما يدفعه الأنديجان عشر مرات تقريبا، لذلك استنتج وارنبي أن العمر الواحد يعادل عشرة رجال من الأنديجان في مسألة الفائدة المادية المحصلة منهم.

²⁷ يمثل لدور المعمرين العسكري، بما حدث في مدينة غليزان، وهو التضحية بسبعة عشر رجلا منهم أثناء الدفاع عن أراضيهم ومحاصيل زراعتهم ضد الغليطة، وهو طبعا لن يشير إلى ما حدث من قتل أفراد قبيلة أولاد رياح المساندة للغليطة، وحرقهم.

²⁸ تيزي هنتش، الشرق الخيالي ورؤية الآخر، صورة الشرق في المخيال الغربي الرؤية السياسية الغربية للشرق المتوسط، تر. مي عبد الكريم، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ط.1، 2006، ص. 254. (نقلا عن كتاب فولبي رحلة إلى مصر).

²⁹ بول بورد، رحلة عبر الجزائر، ص. 229-265.

³⁰ كان بورد منضمًا إلى جول فيري (Jules Ferry) وإميل ماسكري (Emile Masqueray)، وعضو مجلس الشيوخ كلماجيران (Clamageran)، وآخرين من الذين تبنا سياسة التعليم اللاتيني، ومن الذين اعتمدوا التعليم في بلاد القبائل بالخصوص، وسيلة لإنجاح سياسة الإدماج.

³¹ المصدر نفسه، ص. 5.

³² المصدر نفسه، ص. 48.

³³ استولى الإسبان على أمريكا الوسطى والجنوبية، واحتل البرتغاليون أمريكا الجنوبية، والروس آسيا، والإنجليز ساكسونيون أمريكا الشمالية، وإفريقيا الجنوبية، وأستراليا. ينظر: المصدر نفسه، ص. 5.

³⁴ لقد لاحظ بورد لباس بعض الأنديجان المتغير عن اللباس المحلي، كما وجد أن رجال الفنتازيا ضيعوا عاداتهم القديمة، وطوروا من أدواتهم، فقد أصبحوا يتسلحون ببنادق صيد مقتناة من محلات المعمرين الأوروبيين، ينظر المصدر نفسه، ص. 41، 11.

³⁵ المصدر نفسه، ص. 11.

³⁶ المصدر نفسه، ص. 17.

³⁷ المصدر نفسه، ص. 17، 18.

³⁸ المصدر نفسه، ص. 25.

³⁹ المصدر نفسه، ص. 68، 70، 73.

⁴⁰ المصدر نفسه، ص. 60.

⁴¹ المصدر نفسه، ص. 23.

⁴² المصدر نفسه، ص. 73.

⁴³ المصدر نفسه، ص. 41.

⁴⁴ المصدر نفسه، ص. 80، 81.

⁴⁵ المصدر نفسه، ص. 73.

⁴⁶ ينظر رحلة لويس ريجيس، رحلات وإقامات.

⁴⁷ تستعمل الكاتبة لويس ريجيس عادة كلمة العرب للدلالة على الأنديجان المسلمين، رغم أنها في بعض المواضع تحدد شخصيات بقولها عنهم بأنهم من القبائل.

⁴⁸ المصدر نفسه، ص. 2-4 (المقدمة).

⁴⁹ لم تسلم المعلومات التي قدّمها لويس ريجيس -تحت غطاء الدفاع عن الجزائريين- عن الإسلام والدعوة المحمدية من بعض الادعاءات، والكاذيب، والتحريفات، كزعمها أن الله تعالى يأمر بمحاربة المشركين الكفار، وليس المسيحيين، وأن الرسول الكريم قد تلقى الأخبار والمعارف عن شيخين كبيرين ارتحلا في البلدان واصطحبا معهما العلوم والمعارف عن الأديان المختلفة لتلقينها للرسول ﷺ، وبذلك بدا في قرآنه الذي تزعم أنه من كلامه متأثرا بالتوراة والإنجيل، وكذلك زعمت أن رسولنا عليه أفضل الصلوات والتسليم قال ما لم يفعل، حيث جمع بين أكثر من أربع زوجات، بينما نحى المسلمين عن ذلك، ... وغيرها من الادعاءات التي يتعد موضوع هذه الدراسة عنها.

⁵⁰ المصدر نفسه، ص. 247.

⁵¹ المصدر نفسه، ص. 247.

⁵² المصدر نفسه، ص. 19.

⁵³ المصدر نفسه، ص. 63، 64.

⁵⁴ المصدر نفسه، ص. 16، 19، 42، 43، 58، 59.

- 55 المصدر نفسه، ص. 175.
 56 المصدر نفسه، ص. 181.
 57 المصدر نفسه، ص. 186، 187.
 58 المصدر نفسه، ص. 35، 40.
 59 المصدر نفسه، 331.
 60 المصدر نفسه، ص. 343.
 61 المصدر نفسه، ص. 325.
 62 ينظر رحلة باسيت عبر جزائر اليوم، ص. 8، 11، 12.
 63 المصدر نفسه، ص. 9.
 64 المصدر نفسه، ص. 31، 87.
 65 المصدر نفسه، ص. 57-63.
 66 أشار في الكثير من المواضع إلى الحروب والمقاومات التي جرت، كذكره الحروب الدموية التي شنها الجنود الفرنسيون في منطقة موزاية بالبليدة، وجبال الونشريس ومقاومة الفليطة الطويلة، ومقاومة المقراني في البويرة، ويسر، ومقاومة أهل قسنطينة لدخول الفرنسيين للبلاد، ينظر: المصدر نفسه، ص. 56، 85، 144-148،
 67 المصدر نفسه، ص. 66، 68-69، 80، 81.
 68 المصدر نفسه، ص. 66.
 69 المصدر نفسه، ص. 87.
 70 المصدر نفسه، ص. 171، 192.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر الفرنسية:

- 1-Ambroise, Tardieu, De Paris au Sahara, Itinéraire Descriptif et archéologique aux villes romaines de Lambèse et de Timgad., Batna, Imprimerie F. soldati, 1890.
- 2-Besset, Auguste, *A travers l'Algérie d'aujourd'hui*, notes et croquis, Chagny, Imprimerie Roy Frères, 1896.
- 3-Bourde, Paul, *A travers l'Algérie*, Paris, G. Charpentier Editeur, 1880.
- 4-D'Ault -Dumesnil, Edouard, *l'Expédition d'Afrique en 1830*, Paris, Delaunay éditeur, 1832.
- 5-Ratheau, Alexandre, *l'Algérie Vue a Titre d'Ailes ou Lettres d'un oiseau de passage*, Alger, librairie algérienne et coloniale, 1879.
- 6-Régis, Louis, *Voyages et Séjours*, avec une introduction de A. Mezières Paris, Galmann Lévy Editeur, 1880.
- 7-Solleillet, Paul, *Voyage d'Alger à l'Oasis d'In Salah*, Typographie et Lithographie, Alger, A. Jourdan, 1875.
- 8-Warnier, A, *l'Algérie devant l'Empereur*, Paris, Challamel Ainé, 1865.

المراجع العربية والمترجمة إلى العربية:

1. سعيد، إدوارد: الاستشراق، تر. كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1981.
2. السنجري، عمار: البدو بعيون غربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط. 1، 2008.
3. عبد الكريم محمود، مي: تائهون في صحراء الإسلام، صورة الصحراء العربية في كتابات الرحالة والمستشرقين الفرنسيين، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، سورية، ط. 1، 2003.
4. محمد فهميم، حسين: أدب الرحلات، عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989.
5. هنتش، تييري: الشرق الخيالي ورؤية الآخر، صورة الشرق في المخيال الغربي الرؤية السياسية الغربية للشرق المتوسط، تييري هنتش، تر. مي عبد الكريم، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ط. 1، 2006.